محاضرة رقم ١	
الكلية	التربية للعلوم الانسانية
القسم	العلوم التربوية والنفسية
المادة باللغة العربية	علم النفس التجريبي
المادة باللغة الانجليزية	Experimental psychology
المرحلة	الثالثة
السنة الدراسية	2024-2023
الفصل الدراسي	الاول
المحاضر	م.م نور راجي محمد حسين الالوسي
العنوان باللغة العربية	تطور الدراسة التجريبية للسلوك
العنوان باللغة الانجليزية	The development of the experimental study of behavior
المصادر والمراجع	

المحاضرة : الأولى

تطور الدراسة التجريبية للسلوك

ان هنالك اتفاق لدى المهتمين بعلم النفس بأهمية تطوير هذا العلم ليقترب من العلوم الطبيعية، بمعنى ان يكون هنالك ثبات في الحقائق، امكانية التنبؤ بالسلوك قبل حدوثه،ان تتوفر مقاييس ثابتة،وان تعطي المصطلحات النفسية معنى واحد.

ولعل السؤال هنا هو كيف يمكن ان نجعل من علم النفس هذا العلم السلوكي يقترب من العلوم الطبيعية؟

بشكل عام يمكن القول ان العلم هو البحث عن المعرفة الموضوعية المستمدة من الملاحظة،وهكذا فان العلم ما هو الا طريقة بعينها بمعنى طبيعته المنهجية او المبادئ التي تتحكم بكيفية اجراء الملاحظة وهذا يعني اننا لكي نقترب بعلم النفس من العلوم الطبيعة فلا بد لنا من ان نطور ادوات البحث فيه او نطور المنهج الذي من خلاله نتوصل الى الحقائق اذ ان أي علم يكون مرتبط باسلوبه او منهجه ومدى دقته وهذا ما يمكن ان يقود الى تحقق شروط العلم وهي:

1.تجنب التناقضات التي غالباً ما يسلم بها الموروث الشعبي، فمثلا يقول المثل الشعبي،"لايصيبك الا نصيبك"كما يقول" ما فاز باللذات الا الجسور" وهذا تناقض حول دور الجهد في الحصول على ما هو مطلوب،والعلم لايتحمل مثل هذا التناقض، ،فهو مصمم لكي يجيب عن الاسئلة اجابة واضحة مبنية على اسس متينة من الملاحظة،واذا كان هناك اكثر من بديل واحد كنتيجة، فالعلم يحدد الظروف التي ينجم عنها كل بديل من البدائل.

2.استعمال تعابير واضحة ودقيقة،بمعنى التخلص من فائض المعنى واستخدام مفاهيم اجرائية،على العكس مما يستعمل من تعبيرات في الكلام العادي اليومي.

3.اخضاع كل الادعاءات للاختبار المنهجي، لذلك يجب ان تكون الفرضيات مصاغة بحيث يمكن اختبارها عن طريق التجارب مهما بدت صحيحة او متفق عليها،اذ ان العلم مبني على الشك،فنحن نقول مثلا ان الاطفال يتمتعون بصحة نفسية افضل اذا كانوا موضع محبة بدلاً من معاملتهم معاملة قاسية،هذه المقولة هي مزاعم فقط وقد تكون صحيحة تماما او خاطئة تماماً او صحيحة في ظل بعض الظروف وخاطئة في ظل ظروف اخرى،ولكن مهما كان الامر فاننا لانستطيع قبولها علمياً دون اختبار منهجي.

4.ثبات الملاحظات العلمية،بمعنى ان ياتي الحدث قيد الدراسة كلما تلازمت الشروط المفترضة،فلا يظهر السلوك في شخص معين او مجموعة من الاشخاص في مدينة او بلد معين بل يجب ان يظهر في اي مكان او زمان في ظل الشروط نفسها[23].

ولعل هذه الشروط هي ما يحاول علم النفس التجريبي ان يلتزم بها في الوصول الى نتائج موثوق منها ويمكن اثباتها اذا ما اعيدت التجربة وتهيئت الشروط نفسها.

ويمكن القول ان لدراسة السلوك ماضياً طويلاً وتاريخاً قصيراً ،فمع قدم المحاولات في دراسة سلوك الانسان،الا ان الدراسة العلمية للسلوك بشكلها المنهجي لم تبدأ الا في نهاية القرن التاسع عشر،اذ ان بدايات التجريب كانت عند "جون ستيورت مل " والذي تحدث عن منهج الوصول الى الحقائق وقدم اسلوب التوافق،اذ وجد "مل" ان اسباب الظواهر تاتي قبل النتائج فربط السبب بالنتيجة وجاء بهذا الاسلوب،بمعنى اننا

نلاحظ التلازم بين الظواهر،فاذا ما ظهرت س ثم ظهرت ص بشكل متلازم دائما فهذا يعني ان س هي سبب في ظهور ص.

الا ان ثمة انتقاد وجه لاسلوب التوافق لاننا من السهل ان نلاحظ ظواهر تتلازم مع بعضها لكن ليس هنالك علاقة لاحداها بالاخرى وانما هذا التلازم حدث بالصدفة، فاذا كافأنا طفلا بشيء من الحلوى لانه اجاب اجابة صحيحة على مسألة ما فلا نستطيع القول ان زيادة الاستجابة الصحيحة جاءت بسبب المكافاة لان الطفل ربما كان سيفعل ذلك دون تقديم المكأفاة.

ولهذا قام "مل" بتغطية هذا النقص بتقديمه اسلوب اخر اطلق عليه اسلوب التباين، ويقدم هذا الاسلوب شأنه شأن اسلوب التوافق،علاقة شرطية بين الاحداث،فهو يقول اذا لم يكن س اذا لن يكون ص.بمعنى اننا لكي نتاكد من ان س هي سبب في ص فنقوم بعزل او اخفاء س ونلاحظ حالة ص، فاذا ما بقيت ص على حالها فان س ليس لها علاقة بـ ص،اما اذا تغيرت حالة ص فان السبب في ذلك يعود الى س،ويذهب علماء النفس وبخاصة التجريبيين الى ان هذا المنطق هو الاساس في تصميم التجارب الحالية[12].

كما يعد "كوستاف ثيودور فخنر" استاذ الفيزياء من الاوائل الذين طبقوا المنهج التجريبي وحاول ان يفصل علم النفس عن الفلسفة، وادخل القوانين الفيزيائية في علم النفس،اذ قام بدراسة الاستجابة الجلفانية بمعنى اثر الظواهر الفيزيائية في الحواس ومن ذلك مثلا انه استخدام شوكة رنانه لتحديد اثر الاستجابة او رد الفعل الانعكاسي.الا انه مع ذلك وقع في خطأ منهجي لازلنا نعاني منه حتى الان الا وهو الاستبطان،اذ كانت التجارب حينها تقام على شخص واحد فيتم سؤالة عن احاسيسه عندما يتم تعرضه للظواهر الفيزيائية مثلا صوت قوي جداً، اداة معينة...الخ فالمفحوص هنا يتذكر ما حدث له بمعنى انه يستبطن ما في داخله ، ونعد هنا اجابة المفحوص صادقة(من وجهة نظر الباحث). الا ان الاستبطان قد يصح في العمليات البسيطة، لكن اذا ما حاولنا ان نسأل المفحوص عن اتجاهاته مثلا فانه يبدي بعض التحيز ولايعطي الاجابة الصحيحة، علاوه على ما يحدث من تشوية في المعلومات ناتج عن تذكر المعلومات والتي يعتمد عليها منهج الاستبطان[15] ، وهكذا فالاستبطان ليس هو المنهج الصادق في الوصول الى الحقائق العلمية،لكن ومع ذلك لازال هذا المنهج يستخدم حتى الان،اذ ان جزءاً من الاساليب السريرية مثلا تتطلب من المفحوص ان يتذكر وفي هذا تشوية للحقائق.

ويعد "بافلوف" من الاوائل الذين انتقدوا منهج الاستبطان بعد ان قام بتجربته على الكلب اذ لاحظ ان استجابة سيل اللعاب تبقى نفسها على الرغم من تبدل المثير، فتساءل بافلوف عن سبب ذلك،ولان منهج الاستبطان كان هو المنهج السائد آنذاك ولعدم امكانية استبطان الحيوان ،فقد توجه بافلوف بالسؤال الى

مساعديه فجاءت الاجابات مختلفة،علاوة على سذاجة العملية نفسها فمن غير المعقول ان يتخيل الشخص نفسه كلباً ،ولهذا استبعد بافلوف منهج الاستبطان كونه غير دقيق في الوصول الى الحقائق، واكد على عدم العودة الى مسببات داخلية لايمكن قياسها،بل لابد من التاكيد على ما يحدث من سلوك خارجي.وقد التزم عموم السلوكين بعد ذلك بهذا المنهج حيث عدوا السلوك الخارجي الذي يتم قياسه علم مستقل بذاته دون البحث عن شيء اخر لتفسيره فهو يفسر نفسه بنفسه[21] وهذا ما اكد علية "واطسن وسكنر" والذين جعلوا من علم النفس علم تجريبي ووضعوا قواعد للتجريب،واصبحت العلامة المميزة للبحث الجيد هي اجراء التجارب.وقدموا نظرية في التحليل التجريبي للسلوك.

كما ان"فونت" ايضا يعد من الذين ساهموا في تطوير المنهج التجريبي اذ حول احداث الطبيعة الى المختبر عام1879 وحاول ان يضبط جميع المتغيرات التي تحيط بالظاهرة وتؤثر عليها، وهو اول من تحدث عن ما يسمى بالتصميمات المختلطة وهي التصميمات التي تضم متغيرات تجريبية ومتغيرات ارتباطية في آن واحد،اذ اشار الى ان هنالك متغيرات تجريبية وهي المتغيرات التي نستطيع التحكم بها كالعوامل البيئة،كما ان هناك متغيرات ارتباطية لانستطيع التحكم بها كالجنس،الذكاء...الخ.وان كلا من المتغيرات لها من الاثر في سلوك الانسان، لذلك هو تحدث عن تصميم واحد يجمع ما بين كلا المتغيرين اطلق عليه اسم التصميم المختلط[8].

وخلال تلك الفترة قدم العلماء اساليب مناسبة لدراسة العديد من العمليات العقلية العليا مثل:التعلم، التذكر، الادراك الحسي...الخ وكانت هذه الدراسات التاريخية تمثل المشكلات الاولى التي امكن دراستها بنجاح من خلال التجريب في المختبر.وكانت بمثابة الموضوعات الاساسية التي من اجلها كان هنالك تطوير في استخدام الاساليب التجريبية.

بعد ذلك اصبحت غالبية الحقائق في علم النفس الحديث مشتقة من التجريب،فالعديد من البحوث التحريبية اجريت في ميادين مثل علم النفس الاجتماعي، علم نفس النمو، الشخصية...الخ واخذت اهتمامات علم النفس التجريبي تتسع ولعل ابرز الاهتمامات الملحوظة في هذا الشأن هو الاتجاه نحو دمج علم النفس الفسيولوجي وعلم النفس التجريبي،اذ اصبحت الاسهامات الفسيولوجية والتجريبية في فهم الظواهر السلوكية جزءاً اساسياً من المعرفة النفسية.

ولعل من اهم ما تجدر الاشارة اليه هو ان نجاح التجريب في علم النفس هو الذي اقام هذا العلم– علم النفس– كمجال علمي مستقل،مثلما ادى النجاح التجريبي في الفيزياء والكيمياء وعلوم الحياة الى اعطاء هذه العلوم حقها في الانفصال عن الفلسفة.

ومع ما تقدم فقد يتساءل البعض، هل ان المنهج التجريبي هو المنهج العلمي الوحيد في الوصول الى الحقائق؟ كلا اذ مازلنا نستخدم المنهج الارتباطي ومنهج دراسة الحالة...الخ، لكن يمكن القول ان المنهج التجريبي هو المنهج الذي من خلالة يمكن تقريب علم النفس من العلوم الطبيعية لانه يبحث عن اسباب الظواهر النفسية.وهكذا يمكن القول ان التجريب علم ذلك ان العلم يبحث عن السبب،ونحن لانستطيع ان نفهم ونتنبأ ونتحكم بالظواهر دون تحديد الاسباب.